حقيقة الزهد في الإسلام وأثره على النشاط الاقتصادي

The reality of asceticism in Islam and its impact on economic activity

إعداد

د. رابح بحشاشي

Dr. Rabah Hashashy

جامعة الحاج لخضر باتنة-١- الجزائر

د. محمود سليم عبد الرحمان الشويات

Dr. Mahmoud Salim Abdel Rahman Al-Shwiyat

جامعة عجلون الوطنية – الأردن

Doi: 10.33850/jasis.2021.183131

الاستلام: ٢٠٢١/٤/٢٠   القبول : ٢٠٢١/٥/٤

بحشاشي، رابح و الشويات، محمود سليم عبدالرحمان (٢٠٢١). حقيقة الزهد في الإسلام وأثره على النشاط الاقتصادي. ***المجلة العربية للدراسات الاسلامية والشرعية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر ، مج ٥، ع ١٦، ص ص ١- ٥٢.

حقيقة الزهد في الإسلام وأثره على النشاط الاقتصادي

المستخلص:
هدف البحث الى إزالة التناقض الظاهري بين دعوة الإسلام للزهد ودعوته لإعمار الأرض من خلال تبيان الفرق بين الزهد الحقيقي الذي حث عليه الإسلام، والزهد الأعجمي المطبق من قبل الزهاد الذين يتبنون المفهوم الخاطئ للزهد. واستشراف آثار الزهد الحقيقي على حياة البشر وخاصة في جانبها الاقتصادي وما يترتب على ذلك من تبعات على حياة البشرية عامةً. وقد وجد أن الزهد بمفهومه الحق يعني: أن تصبح الدنيا بيد الإنسان لا في قلبه، والمفهوم الاقتصادي للدنيا يتمثل بالمال والثروة، وعملية إخراجهما من القلب إلى اليد ليس بالأمر السهل، فمعنى ذلك أن يتخلص المرء من كل مظاهر البخل والشح، والحرص الزائد على المال، مما يشجعه على تشغيله وتثميره بدلاً من حبسه واكتنازه، ولنتصور معاً الأثر الاقتصادي الايجابي المتوقع.

Abstract:
The aim of the research is to remove the apparent contradiction between Islam's call for asceticism and its call for the settlement of the earth by clarifying the difference between the real asceticism urged by Islam, and the foreign asceticism applied by ascetics who adopt the wrong concept of asceticism. And anticipating the effects of real asceticism on human life, especially in its economic aspect, and the consequences that this has on human life in general. It was found that asceticism in its true sense means: that the world becomes in the hands of man, not in his heart, and the economic concept of this world is represented in money and wealth, and the process of taking them out from the heart to the hand is not an easy thing, so it means that a person gets rid of all manifestations of miserliness and scarcity, and excessive concern for money , which encourages him to operate and invest it instead of locking it up and hoarding it, and let's imagine together the expected positive economic impact.

مقدمة:

الزهد ظاهرة عالمية لها أتباعها في كل مكان من العالم، وعلى مر العصور والأزمنة، عند الأمم ذات الرسالات السماوية أو غيرها من الأمم اللأدينية، ويعتبر الزهد مرحلة أولية، إذا ما تركز وتجذر بالنفس، ينقلب إلى مرحلة متقدمة تعرف بالتصوّف، حيث يصبح السلوك الشخصي متعلق بالفكر والروح والمعتقد أكثر من تعلقه بالمادة والجسد، ولهذا يعتبر المتصوفون طبقة الخصوص من الزهّاد، ورغم أننا لسنا في معرض التقييم العقدي لهذه الظاهرة، إلا أن ذلك لا يعفينا من الإشارة إلى أن أتباع كل من الصوفية والزهاد، ما هم إلا باحثين عن الحق والحقيقة، ولكن ليس كل من بحث عن الحق وجده، فمنهم من اهتدى إلى سواء السبيل فصلُح وأصلح، ومنهم من تاه وتمسك بالسراب يحسبه حقيقة فضلَّ وأضلَّ.

والمتتبع لمراحل ومحطات التاريخ الإسلامي، يجد بأن النصوص الشرعية ذات العلاقة بالزهد قد فُهمت فهماً خاطئ ً، حيث أُشبع مفهوم الزهد في الدنيا بدلالات هجينة، وأضيف إليه معاني دخيلة، وأصبح الزهد – *بمفهومه الخاطئ* – يعني الانسحاب من الحياة الدنيا وهجرها بالكلية، والعكوف على عبادات وأذكار وأوراد، وقد كان ذلك كردة فعل طبيعية على ما وقع من انتشار لمظاهر الترف، والتوسع في الإقبال على ملذات الدنيا، والإسراف الباذخ على المتع والشهوات، وترتب على ذلك أن انصرف الزهّاد للإنشغال بما في السماء، وما تحت الأرض، أما ما فوق الأرض فليس لهم به تعلّق يذكر، لأنه من شؤون الدنيويين الغافلين - *بحسب تعبيرهم* - إن تلك المفاهيم حينما تشيع في أوساط المسلمين، فإنها تُذّهِب معها مفاهيم إسلامية أصلية، كمفهوم الاستخلاف، وإعمار الأرض، التي بإعمالها وتفعيلها في واقع الحياة الاقتصادية يتحقق للمسلمين الوجود الحضاري الذي به يعرفون بين الأمم.

أما المعنى الحقيقي للزهد فهو أن لا تجعل للدنيا في قلبك مكان، وإن استطعت أن تملك الدنيا فافعل ولكن أبقها في يدك ولا تدخلها قلبك، وبهذا يصبح موضوع الزهد من القضايا التي لها اتصال مباشر بالجانب الاقتصادي في كل مناحي الحياة يؤثر ويتأثر بها، ولهذا لا بد من الوقوف على حقيقة الزهد الذي أراده الإسلام، لأن ما نراه من المظاهر التي يتحلى بها الزهّاد نجدها تتناقض مع ما دعا إليه هذا الدين السمح، وهذا التناقض تتنزه عنه الشريعة الربانية، لأنها حق مطلق لا يقبل النسبية ولا التناقض، وهي صحيح مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعند التحقق نجد أن هناك تناقضاً ظاهرياً بين ما دعت إليه سماحة هذا الدين: من إعمار لهذه الأرض، والاجتهاد في طلب الرزق، وعدم التواكل والخمول، وبين ما يظهر على الزهّاد من إهمال للدنيا وتعطيل لمواردها البشرية والمادية.

نلاحظ من خلال ما سبق، أن الإنسان بفهمه الخاطئ لبعض للأمور، يقوم بإجراء بعض التطبيقات المغايرة لما تتضمنه روح وطبيعة النص أو الفكرة موضع التطبيق،

وما سبب ذلك في أغلب الأحايين إلا تدخل الزيغ والهوى النفسي، وعدم الموضوعية في التعامل مع النص أو الفكرة المطروحة، وهذا ما حصل لدى معظم الزهّاد، حيث اعتمدوا بالكلية على العقل والمنطق في تفسيرهم للنصوص الشرعية الداعية للزهد، حتى وصلوا إلى ما نقرأ ونلحظ من تطبيقات خاطئة لفكرة الزهد، هذه الفكرة المطلوبة أصلاً من كل المسلمين وليس من الزهاد فقط، ولكن المطلوب الزهد على حقيقته الشرعية الربانية، وليس على المعنى الأعجمي والفهم الخاطئ لبعض الزهّاد.

أهمية البحث ودوافع اختياره:

من خلال التمهيد الموجز أعلاه تظهر أهمية الكتابة في هذا المجال المهمش بحثياً من الناحية الاقتصادية، أما بالنسبة لدوافع الاختيار فهناك دافع بحثي منهجي دفعني للكتابة في هذا الموضوع، يتمثل في ندرة ما هو مكتوب في هذا المجال، وكذلك هناك دافع شخصي خاص يتمثل في أنني أجد في نفسي ميلا نوعاً ما باتجاه الزهد، فأردت أن أقف على حقيقة الزهد الذي أراده الإسلام، لأن ما أراه من مظاهر يتحلى بها من يدعون الزهد، أجدها تتناقض مع ما دعا إليه هذا الدين، وهذا تناقض منزهة عنه الشريعة الربانية ولا تقبله إطلاقاً.

مشكلة البحث:

مشكلة البحث واقعياً تتمثل في وجود تناقض ظاهري بين ما دعت إليه سماحة هذا الدين من إعمار لهذه الأرض، والاجتهاد في طلب الرزق وعدم التواكل والخمول، وبين ما يظهر على من يدعون الزهد من إهمال للدنيا وتعطيل لمواردها البشرية والمادية، أما المشكلة البحثية فتتمثل في مسعى الباحث إلى إزالة هذا التناقض الظاهري، لأن دين الله منزه عن مثل هذا التناقض، فهو حق مطلق لا يقبل النسبية ولا التناقض، وهو صحيح مطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

أهداف البحث:

١. إزالة التناقض الظاهري بين دعوة الإسلام للزهد ودعوته لإعمار الأرض من خلال تبيان الفرق بين الزهد الحقيقي الذي حث عليه الإسلام، والزهد الأعجمي المطبق من قبل الزهاد الذين يتبنون المفهوم الخاطئ للزهد.

٢. استشراف آثار الزهد الحقيقي على حياة البشر وخاصة في جانبها الاقتصادي وما يترتب على ذلك من تبعات على حياة البشرية عامةً.

مجال البحث:

سوف يتم بحث موضوع الزهد من خلال تدبر بعض النصوص القرآنية المختارة، واعتماد تفسيرها من ظلال القرآن للشهيد سيد قطب، وكذلك استشراف بعض الصور من سيرة السلف الصالح.

مقدمة:

قال تعالى: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ۞ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (النحل: ١٠٦-١٠٧).

وقال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (التوبة:٢٤).

الزهد ظاهرة عالمية لها أتباعها في كل مكان من العالم، وعلى مر العصور والأزمنة، عند الأمم ذات الرسالات السماوية أو غيرها من الأمم اللأدينية - ذات المعتقدات غير السماوية- ويعتبر الزهد مرحلة أولية، إذا ما تركز وتجذر بالنفس، ينقلب إلى مرحلة متقدمة تعرف بالتصوف، حيث يصبح السلوك الشخصي متعلق بالفكر والروح والمعتقد أكثر من تعلقه بالمادة والجسد، ولهذا يعتبر المتصوفون طبقة الخصوص من الزهاد، ورغم أننا لسنا في معرض التقييم العقدي لهذه الظاهرة، إلا أن ذلك لا يعفينا من الإشارة إلى أن اتباع كل من الصوفية والزهاد، ما هم إلا باحثين عن الحق والحقيقة، ولكن ليس كل من بحث عن الحق وجده، فمنهم من اهتدى إلى سواء السبيل فصلُح وأصلح، ومنهم من تاه أثنا بحثه عن الحقيقة،وتمسك بالسراب يحسبه حقيقة فضلَّ وأضلَّ[1]

"والمتتبع لمراحل ومحطات التاريخ الإسلامي، يجد بأن مثل هذه النصوص أعلاه قد فُهمت فهماً خاطئ ً، حيث أُشبع مفهوم الزهد في الدنيا بدلالات هجينة، وأضيف إليه معاني دخيلة، وأصبح الزهد يعني الانسحاب من الحياة الدنيا وهجرها بالكلية، والعكوف على عبادات وأذكار وأوراد. وقد كان ذلك كردة فعل طبيعية على ما وقع من انتشار مظاهر الترف، والتوسع في الإقبال على ملذات الدنيا، والإسراف الباذخ على المتع والشهوات، ونتج عن ذلك بأن نشأت اتجاهات تدعو لإعادة الاعتبار للزهد، وتشدد على ضرورة التقلل من الدنيا، ثم ما لبث أن داخلت تلك الدعوات توجهات واتجاهات غريبة دخيلة، تريد أن تؤسس لأنماط جديدة من السلوك والتنسك، حيث انصرفت الهموم إلى الاشتغال بما في السماء، وما تحت الأرض، أما ما فوق الأرض فليس لهم به تعلق يذكر لأنه من شؤون الدنيويين الغافلين- بحسب تعبيرهم -، إن تلك المفاهيم حينما تشيع في أوساط المسلمين، فإنها تُذّهِب معها مفاهيم إسلامية أصلية، كمفهوم الاستخلاف، وإعمار الأرض، التي بإعمالها وتفعيلها في واقع الحياة يتحقق للمسلمين الوجود الحضاري الذي به يعرفون بين الأمم"[2]

---

[1] قريب الله: حسن شيخ الفاتح شيخ، في الزهد و التصوف. بيروت:دار الجيل،١٩٩١م. ص ٢٥-٢٦.

[2] بسام ناصر : اختلال مفهوم الزهد في الدنيا ألا يكرس تخلف المسلمين وضعفهم،

نلاحظ من خلال ما سبق، أن الإنسان بفهمه الخاطئ لبعض للأمور، يقوم بإجراء بعض التطبيقات المغايرة لما تتضمنه روح وطبيعة النص أو الفكرة موضع التطبيق، وما سبب ذلك في أغلب الأحايين إلا تدخل الزيغ والهوى النفسي، وعدم الموضوعية في التعامل مع النص أو الفكرة المطروحة، وهذا ما حصل لدى معظم الزهاد، حيث اعتمدوا بالكلية على العقل والمنطق في تفسيرهم للنصوص الداعية للزهد، حتى وصلوا إلى ما نقرأ ونلحظ من تطبيقات خاطئة لفكرة الزهد، المطلوبة أصلاً من كل المسلمين وليس من الزهاد فقط، ولكن المطلوب الزهد على حقيقته الشرعية الربانية، وليس على الفهم الخاطئ لبعض الزهاد، ولا يعني ما سبق أن الإسلام لا يقبل العقل والمنطق، ولكن المقصود عدم الاعتماد عليهما بالكامل وترك ما سواهما.

المبحث الأول

مفهوم الزهد وحدوده تطبيقاته

المطلب الأول: مفهوم الزهد في الدنيا وحدوده

أولاً: مفهوم الزهد في الدنيا:

الزهد لغة: ضد الرغبة، وزهَّده في الشيء أي رغَّبه عنه، وهو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه.[٣]

الزهد اصطلاحاً عند الزهاد الصوفية: هو ترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.[٤]

الزهد اصطلاحاً عند الزهاد المعتدلين: بلا شك أن تعريف الزهد الحقيقي يؤخذ من الحبيب المصطفى الذي لا ينطق عن الهوى، فقد روى أبو ذر الغفاري ﵁ حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول﴿ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد: أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يديك وأن تكون ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها أبقيت لك﴾ (أخرجه الترمذي /٢٥١١).

يُفهم من الحديث الشريف أن الزهد بمفهومه الحق يعني أن تصبح الدنيا بيد الإنسان لا في قلبه، بحيث لا تملك عقله فلا يفكر إلا بها، ولا تشغل وقته فلا يتفرغ إلا لأجلها، وإنما تصبح الدنيا وما بها عبارة عن وسيلة لتحقيق الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، وهي العبادة في المقام الأول وإعمار الأرض في المقام الثاني.

"ليس الزاهد من لا يلبس الثياب الجميلة، ولا يركب السيارات الفخمة، أو يتقشف ويأكل الخبز بلا إدام وما أشبه ذلك، ولكن يتمتع بما أنعم الله عليه، لأن الله يحب أن يرى

الموقع الإلكتروني لجريدة الغد، عمان الأردن 13/5/2005

[٣] المروزي: عبد الله بن المبارك،الزهد والرقائق.دار العقيدة،القاهرة،٢٠٠٤م.ص٨ / عن لسان العرب٣/١٨٧٦.

[٤] نفس المرجع: ص٩.

أثر نعمته على عبده، وإذا تمتع بالملاذ على هذا الوجه صار نافعاً له في الآخرة، لأن الزهد مرتبته أعلى من الورع، والورع ترك ما يضر، أما الزهد فهو تركما لا ينفع في الآخرة، كما أن الزهد في الدنيا من أسباب محبة الله عزّ وجل فإنه من أسباب محبة الناس إذا ما زهد المسلم فيما عند الناس، كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وقد سبق بيان الحديث ، قال ابن القيم: والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذ في منازل الآخرة، وقال كذلك:لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، أو من فساد في العقل، أو منهما معاً"[٥].

ثانياً: حدود الزهد في الدنيا:

وزهد المصطفى هو خير دليل على الحدود الفعلية الضابطة للزهد من غير إفراط ولا تفريط ، فكان يمر الزمن ولم يوقد في بيته صلى الله عليه وسلم نار إذ ليس هناك شيء يُطبخ، سوى الأسودان التمر والماء، ولكن يجب أن ننتبه إلى أنه لم يكن عنده عليه الصلاة والسلام إلا هذا، ولم يذكر أنه كان عنده صلى الله عليه وسلم أطايب الطعام فيتركها ويتناول الفتات فحسب، فهذا هو الزهد الحقيقي في الدنيا، "لأن الله عز وجل يستطيع أن يجعل منه ملكاً، عنده خزائن الأرض، لكن ما سأل الله هذا. وفي المقابل لما دعاه احد الصحابة إلى بستانه، وذبح له شاة وشوى لهم وأكلوا، وأتى لهم باللبن وشربوا، هل قال له الرسولﷺ لا أقرب هذا الطعام أو هذه الشاة المشوية، لأن هذا طعام نفيس وسأزهد فيه ولن آكل منه، بل أكل، أي لما تيسرت له الأشياء ولما وجد أكل، فأكل من هذا اللحم المشوي النفيس هل ينافي الزهد؟ كلا.

وكذلك كان له نسوة ويقوم بأمرهن ويعدل، وقد أباح الله له الزيادة على أربع خصوصية في حقه، هل قال: أزهد في النساء وأطلق نسائي كلهن؟ لا. فهذا الذي نحتاج إليه وهو المفهوم الصحيح في الزهد ، وهذه هي الحدود المنطقية للزهد، لأن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده من غير تكلف ولا بطر ولا إسراف ولا مخيلة، وبهذا يعرف الغني الذي عنده مال أنه زاهد أم لا؟ إذا شغلتك النعمة عن الله فازهد فيها، فزهدك فيها أفضل، وإن لم تشغلك عن الله، بل كنت شاكراً لله فيها، فحالك فيها أفضل[٦].

الزهد في حقيقته هو الإعراض عن الشيء ، على من تيسر له أمر من الأمور فأعرض عنه وتركه زهداً فيه، وأما من لم يتيسّر له ذلك فلا يقال إنه زهد فيه وقد كان نبينا ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأقلهم رغبة فيها ، مكتفياً منها بالقليل ، راضياً فيها بحياة الشظف ، ممتثلاً قول ربه عز وجل: ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم

---

[٥] موقع مؤسسة محمد بن صالح العثيمين الإلكتروني: الرابط: info@binothaimeen.com

[٦] الموقع الإلكتروني لتسجيلات الشبكة الإسلامية - الرابط: - Islamweb_net.htm

زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (طه : ١٣١) ، مع أن الدنيا كانت بين يديه ، ومع أنه أكرم الخلق على الله ، ولو شاء لأجرى له الجبال ذهباً وفضة.

ولهذا فالزهد هو أن يستوي عند الإنسان إقبال الدنيا وإدبارها فإن أقبلت أخذها بحقها وشكر الله فيها ولم تشغل قلبه، وإن أدبرت صبر على ذلك واحتسب ولم يشغل قلبه بطلبها، لهذا فحال المسلم مع الدنيا بالتوسط والاعتدال فلا يركن إليها لأنها غرورة مخادعة، ولا يتركها لأن الآخرة لا تنال إلا بإعمارها وتحقيق مبدأ الخلافة فيها.

يقول القشيري في رسالته: "ينبغي للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه، ولا طلب الفضل مما لا يحتاج إليه، ويراعي القسمة، فإن رزقه الله، سبحانه وتعالى، مالاً من حلال، شكره، وإن وقفه الله تعالى على حد الكفاف لم يتكلف في طلب ما هو فضول المال، فالصبر أحسن بصاحب الفقر، والشكر أليق بصاحب المال الحلال"[٧]

المطلب الثاني: موقف السلف الصالح من الزهد في الدنيا

أولاً: موقف المصطفىﷺ من الزهد:

سبق وأن المحنا لموقف الرسولﷺ من الزهد عند بيان حدود الزهد، وكيف أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ليترك نعمة متوفرة بين يده بداعي الزهد، وإنما كان زهده في عدم السعي للدنيا والتشبث بها،وعدم تعلق قلبه بالدنيا رغم قلة ما لديه، ولم يسأل الله المزيد زهداً في الدنيا، وكان موقفه من الدنيا متمثلاً بالآتي: قال ﷺ لابن عمرؓ : ﴿كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل﴾ (رواه البخاري / ٦٤٩٢) •وقالﷺ: ﴿الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ﴾ (رواه مسلم / ٧٦٠٦). وقالﷺ : ﴿مالي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال - أي نام - في ظل شجرة ، في يوم صائف ، ثم راح وتركها﴾ (رواه أحمد /٢٦٠٨ وهو صحيح).[٨]

ولهذا فإن المرء ليقف متعجبا أمام ما يذكره علماء السير من وصفٍ لبيوت النبيﷺ وقلة متاعها، فلم يكن فيها شيءٌ يملأ العين من الأثاث ونحوه، وما ذلك إلا زهداً في الدنيا وإعراضاً عنها، ولم يتركﷺ عند موته درهما ولا دينارا، ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا، إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضا جعلها صدقة، قالت عائشةؓ: " توفي رسول اللهﷺ وما من شيء أكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلتُ منه حتى طال عليَّ " ، ومات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهوديّ مقابل شيءٍ من الشعير، إن ما ذكرناه في هذه العجالة هو شيء يسير من أخبار إمام الزاهدين وسيد العابدين الحبيب المصطفىﷺ، وستظل هذه الأخبار شواهد صدق على نبوته وزهده وإيثاره ما عند الله

[٧] الأعرابي: سعيد أحمد بن زياد، كتاب فيه معنى الزهد، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٤/عن القشيري: الرسالة، ج١، ص٣٦٦.

[٨] الموقع الإلكتروني لشبكة نداء الإيمان- الحديث الشريف. الرابط: www.al-eman.com

عز وجل، وإن فيها دعوة للأمة وللأجيال المؤمنة للزهد في الدنيا والحذر من فتنتها، فلو كانت الدنيا دليل محبة الله لصاحبها، لفاز بها أشرف الخلق وأكرمهم على الله [٩].

وهناك العديد من المواقف التي حثﷺ من خلالها على الزهد في الدنيا ومدحه، ولا أدل على ذلك من قوله ﷺ: ﴿ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس﴾ (رواه ابن ماجه / ٤٢٤١ وصححه الألباني) ٠ وقال صلى الله عليه وسلم : ﴿اقتربت الساعة ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصاً ، ولا يزدادون من الله إلا بعداً﴾ (رواه الحاكم وحسنه الألباني). وقال صلى الله عليه وسلم مبيناً حقارة الدنيا : ﴿ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم يرجع﴾ (رواه مسلم / ٧٣٧٦) وقال صلى الله عليه وسلم : ﴿لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة ماء﴾ (رواه الترمذي/٢٤٩٠ وصححه الألباني). وهنا نتساءل مستنكرين هل يتصور أن يحث النبيﷺ على أمر ليس فيه خير ومنفعة للدنيا والآخرة معاً [١٠].

ثانياً: موقف الصحابة رضوان الله عليهم من الزهد [١١]

لما كان صلى الله عليه وسلم هو الأسوة والقدوة، فقد سار على دربه صحبه الأفاضل نعرض لبعض من مواقفهم:

فعن علىرضي الله عنه أنه قال: طوبى للزاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماءها طيباً، والكتاب شعاراً، والدعاء دثاراً، ورفضوا الدنيا رفضاً.

وكتب أبو الدرداءرضي الله عنه إلى بعض إخوانه، أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله، والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك الله لرغبتك فيما عنده، وأحبك الناس لتركك لهم دنياهم، والسلام.

وعن عروة بن الزبيررضي الله عنه أن أم المؤمنين عائشةرضي الله عنها جاءها يوماً من عند معاويةرضي الله عنه ثمانون ألفاً، فما أمسى عندها درهم، قالت لها جاريتها: فهلا اشتريت لنا منه لحماً بدرهم؟ قالت: لو ذكرتني لفعلت.

وقال ابن مسعودرضي الله عنه: الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا علم له، ولما قدم عمررضي الله عنه الشام تلقاه الجنود وعليه إزار وخفان وعمامة، وهو آخذ برأس راحلته يخوض الماء، فقالوا: يا أمير المؤمنين، يلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على حالتك هذه، فقال:" إنا قوم أعزنا الله بالإسلام، فلن نلتمس العز بغيره ".

---

[٩] الموقع الإلكتروني للشبكة الإسلامية - زهد النبي صلى الله عليه وسلم، الرابط: Islamweb_net.F.htm

[١٠] الموقع الإلكتروني لشبكة نداء الإيمان- الحديث الشريف. الرابط: www.al-eman.com

[١١] الموقع الإلكتروني للشبكة الإسلامية - الزهد طريق إلى المحبة.Islamweb_net. F\:htm

و دخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه فجعل يقلب بصره في بيته، فقال يا أبا ذر: ما أرى في بيتك متاعاً، ولا أثاثاً، فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا وقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

وبهذا يعلمنا الحبيب المصطفى ﷺ والسلف الصالح رضي الله عنهم بأننا أصحاب رسالة ثقيلة لا يمكن تأدية ما فيها بالتكاسل والخمول وإدعاء الزهد بمفهومه الخاطئ الذي يؤدي إلى تعطيل الموارد المادية ويسيء استخدامها كما يميت النفس ويحبط عزائمها ويشغلها بما يخالف إرادة الله في إعمار هذه الأرض والقيام بالوظيفة الإستخلافية فيها، وإنما بينوا لنا من خلال سيرتهم العطرة بأن الزهد ليس إنهزاماً ولا ضعفاً ولا سلبية في الحياة، وإنما هو قوة روحية عظيمة، وإيمان صادق، ينعكس أثره الإيجابي على كل نشاطات وفعاليات الحياة الإنسانية كافة، وما أحجونا في عصر المادية والأنانية المقيتة التي نعيش، إلى مثل هذه الأفكار الحقيقية الصادقة عن الزهد والزهادة الحقة، لكي يعم المجتمع عبق الحياة الروحية وتسود الأخلاق الحميدة، وتطمئن النفوس الجشعة، وخصوصاً في المجال الاقتصادي.

المبحث الثاني

النصوص القرآنية الداعية للزهد وآثارها

في هذا المبحث سوف نتبع الأسلوب الآتي:

- سيتم انتخاب طائفة ممثلة للآيات الداعية للزهد.
- سيتم تقصي تفاسير هذه الآيات المنتخبة من تفسير ظلال القرآن للشهيد سيد قطب رحمه الله
- ستتم دراسة الآيات الكريمة بتدبر وكذلك دراسة التفسير الخاص بكل آية للتوصل إلى أهم الآثار الاقتصادية والاجتماعية لها.
- تم الرجوع للموقع الإلكتروني للشبكة الدعوية. الرابط: www.daawa-info.net

المطلب الأول

الآيات الكريمة الداعية للزهد وتفاسيرها

١. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ سورة آل عمران آية (١٤) .

يعرض النص القرآني الذي يتولى هذا التوجيه التربوي هذه الرغائب والدوافع، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألوانا من لذائذ الحس والنفس في العالم الآخر، ينالها من يضبطون أنفسهم في هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق في لذائذها المحببة، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة

وفي آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان: النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل والأرض المخصبة والأنعام، وهي خلاصة للرغائب الأرضية، إما بذاتها، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى، وفي الآية التالية يعرض لذائذ أخرى في العالم الآخر: جنات تجري من تحتها الأنهار، وأزواج مطهرة، وفوقها رضوان من الله، وذلك كله لمن يمد ببصره إلى أبعد من لذائذ الأرض، ويصل قلبه بالله.(زين للناس).

وصياغة الفعل للمجهول هنا تشير إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل؛ فهو محبب ومزين، وهذا تقرير للواقع من أحد جانبيه، ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه "الشهوات"، وهو جزء من تكوينه الأصيل، لا حاجة إلى إنكاره، ولا إلى استنكاره في ذاته، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد – كما أسلفنا – ولكن الواقع يشهد كذلك بأن في فطرة الإنسان جانبا آخر يوازن ذلك الميل، ويحرس الإنسان أن يستغرق في ذلك الجانب وحده، وأن يفقد قوة النفخة العلوية أو مدلولها وإيحاءها، هذا الجانب الآخر هو جانب الاستعداد للتسامي، والاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة هذه "الشهوات". الحد الباني للنفس وللحياة، مع التطلع المستمر إلى ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذي تهتف إليه النفحة العلوية، وربط القلب البشري بالملإ الأعلى والدار الآخرة ورضوان الله هذا الاستعداد الثاني يهذب الاستعداد الأول، وينقيه من الشوائب، ويجعله في الحدود المأمونة التي لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية ونزعاتها القريبة، على الروح الإنسانية وأشواقها البعيدة، والاتجاه إلى الله، وتقواه، هو خيط الصعود والتسامي إلى تلك الأشواق البعيدة. (زين للناس حب الشهوات) فهي شهوات مستحبة مستلذة، وليست مستقذرة ولا كريهة، والتعبير لا يدعو إلى استقذارها وكراهيتها، إنما يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكانها لا تتعداه، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى، والتطلع إلى آفاق أخرى بعد أخذ الضروري من تلك "الشهوات" في غير استغراق ولا إغراق! [١٢](١)

وهنا يمتاز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولها بواقعها، ومحاولة تهذيبها ورفعها، لا كبتها وقمعها، والذين يتحدثون في هذه الأيام عن "الكبت" وأضراره، وعن "العقد النفسية" التي ينشئها الكبت والقمع، يقررون أن السبب الرئيسي للعقد هو "الكبت" وليس هو "الضبط"، وهو استقذار دوافع الفطرة واستنكارها من الأساس، مما يوقع الفرد تحت ضغطين متعارضين: ضغط من شعوره – الذي كونه الإيحاء أو كونه الدين أو كونه العرف – بأن دوافع الفطرة دوافع قذرة لا يجوز وجودها أصلا، فهي خطيئة ودافع شيطاني! وضغط هذه الدوافع التي لا تغلب لأنها عميقة في الفطرة، ولأنها ذات

[١٢] قطب:سيد،في ظلال القرآن.دار الشروق،القاهرة،المجلد الأول،الطبعة الشرعية ٢٦،ص٣٧٣-٣٧٥، ١٩٩٧م.

وظيفة أصيلة في كيان الحياة البشرية، لا تتم إلا بها، ولم يخلقها الله في الفطرة عبثا، وعندئذ وفي ظل هذا الصراع تتكون "العقد النفسية "، فحتى إذا سلمنا جدلا بصحة هذه النظريات النفسية، فإننا نرى الإسلام قد ضمن سلامة الكائن الإنساني من هذا الصراع بين شطري النفس البشرية، بين نوازع الشهوة واللذة، وأشواق الارتفاع والتسامي، وحقق لهذه وتلك نشاطها المستمر في حدود التوسط والاعتدال. (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث.)

والنساء والبنون شهوة من شهوات النفس الإنسانية قوية، وقد قرن إليهما (القناطير المقنطرة من الذهب والفضة)، ونهم المال هو الذي ترسمه (القناطير المقنطرة)، ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال: والأموال أو والذهب والفضة، ولكن القناطير المقنطرة تلقي ظلا خاصا هو المقصود، ظل النهم الشديد لتكديس الذهب والفضة، ذلك أن التكديس ذاته شهوة، بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى! ثم قرن إلى النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة الخيل المسومة، والخيل كانت – وما تزال حتى في عصر الآلة المادي اليوم – زينة محببة مشتهاة، ففي الخيل جمال وفتوة وانطلاق وقوة، وفيها ذكاء وألفة ومودة، وحتى الذين لا يركبونها فروسية، يعجبهم مشهدها![١٣]

وقرن إلى تلك الشهوات الأنعام والحرث، وهما يقترنان عادة في الذهن وفي الواقع، الأنعام والحقول المخصبة، والحرث شهوة بما فيه من مشهد الإنبات والنماء، وإن تفتح الحياة في ذاته لمشهد حبيب فإذا أضيفت إليه شهوة الملك، كان الحرث والأنعام شهوة، وهذه الشهوات التي ذكرت هنا هي نموذج لشهوات النفوس، يمثل شهوات البيئة التي كانت مخاطبة بهذا القرآن، ومنها ما هو شهوة كل نفس على مدار الزمان، والقرآن يعرضها ثم يقرر قيمتها الحقيقية، لتبقى في مكانها هذا لا تتعداه، ولا تطغى على ما سواه.

(ذلك متاع الحياة الدنيا) ذلك كله الذي عرضه من اللذائذ المحببة- وسائر ما يماثله من اللذائذ والشهوات – متاع الحياة الدنيا، لا الحياة الرفيعة، ولا الآفاق البعيدة، متاع هذه الأرض القريب، فأما من أراد الذي هو خير، خير من ذلك كله، خير لأنه أرفع في ذاته، وخير لأنه يرفع النفس ويصونها من الاستغراق في الشهوات، والإنكباب على الأرض دون التطلع إلى السماء، من أراد الذي هو خير فعند الله من المتاع ما هو خير، وفيه عوض كذلك عن تلك الشهوات.[١٤]

[١٣] نفس المرجع: ص٣٧٣-٣٧٥ ١٩٩٧م.
[١٤] قطب: سيد، في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة،المجلد الأول، ،ص١٥-١٦، ١٩٩٧م.

٢. وقوله تعالى: ﴿٠٠٠وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [١٥]

وأيا ما كانت حكمة الله من وراء تأخير فرض الجهاد، فقد كان هناك المتحمسون يبدون لهفتهم على اللحظة التي يؤذن لهم فيها بالقتال:

(فلما كتب عليهم القتال، إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا: ربنا لم كتبت علينا القتال؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب!).

وكان وجود هذه الطائفة الثانية في الصف المسلم ينشىء فيه حالة من الخلخلة، وينشئ فيه حالة من عدم التناسق بين هذه الطائفة الجزوع الهلوع، وبين طائفة الرجال المؤمنين، ذوي القلوب الثابتة المطمئنة،المستقبلة لتكاليف الجهاد - على كل ما فيها من مشقة - بالطمأنينة والثقة والعزم والحماسة أيضا، ولكن في موضعها المناسب، فالحماسة في تنفيذ الأمر حين يصدر هي الحماسة الحقيقية، أما الحماسة قبل الأمر، فقد تكون مجرد اندفاع وتهور، يتبخر عند مواجهة الخطر!

وكان القرآن يعالج هذه الحالة بمنهجه الرباني: (قل: متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلا، أينما تكونوا يدرككم الموت، ولو كنتم في بروج مشيدة) إنهم يخشون الموت، ويريدون الحياة، ويتمنون في حسرة مسكينة! لو كان الله قد أمهلهم بعض الوقت ومد لهم - شيئا- في المتاع بالحياة، والقرآن يعالج هذه المشاعر في منابتها، ويجلو غبش التصور لحقيقة الموت.

(قل متاع الدنيا قليل) متاع الدنيا كله، والدنيا كلها، فما بال أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين؟ ما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير، إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملته قليلا ؟! ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام، أو أسابيع، أو شهور، أو سنين، ومتاع الدنيا كله والدنيا بطولها قليل!

(والآخرة خير لمن اتقى) فالدنيا - أولا - ليست نهاية المطاف ولا نهاية الرحلة، إنها مرحلة، ووراءها الآخرة والمتاع فيها هو المتاع - فضلا على أن المتاع فيها طويل كثير - فهي (خير لمن اتقى)، وتذكر التقوى هنا والخشية والخوف في موضعها، التقوى لله، فهو الذي يتقى، وهو الذي يخشى، وليس الناس، الناس الذين سبق أن قال: إنهم يخشونهم كخشية الله - أو أشد خشية - والذي يتقي الله لا يتقي الناس، والذي يعمر قلبه الخوف من الله لا يخاف أحدا، فماذا يملك له إذا كان الله لا يريد؟ (ولا تظلمون فتيلا) فلا غبن ولا ضير ولا بخس، إذا فاتهم شيء من متاع الدنيا، فهناك الآخرة، وهناك الجزاء الأوفى، الذي لا يبقى معه ظلم ولا بخس في الحساب الختامي للدنيا والآخرة جميعا، ولكن بعض الناس قد تهفو نفسه - مع هذا كله - إلى أيام تطول به في هذه الأرض، حتى وهو يؤمن بالآخرة، وهو ينتظر جزاءها الخير، وبخاصة حين يكون في المرحلة الإيمانية التي

[١٥] سورة النساء آية (٧٧).

كانت فيها هذه الطائفة.[16] هنا تجيء اللمسة الأخرى، اللمسة التي تصحح التصور عن حقيقة الموت والحياة، والأجل والقدر، وعلاقة هذا كله بتكليف القتال، الذي جزعوا له هذا الجزع، وخشوا الناس فيه هذه الخشية.

٣. وقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [17].

فالله لطيف بعباده يرزق من يشاء، يرزق الصالح والطالح، والمؤمن والكافر، فهؤلاء البشر أعجز من أن يرزقوا أنفسهم شيئاً، وقد وهبهم الله الحياة، وكفل لهم أسبابها الأولية، ولو منع رزقه عن الكافر والفاسق والطالح، ما استطاعوا أن يرزقوا أنفسهم ولماتوا جوعاً وعرياً وعطشاً، وعجزاً عن أسباب الحياة الأولى، ولما تحققت حكمة الله من إحيائهم وإعطائهم الفرصة ليعملوا في الحياة الدنيا ما يحسب لهم في الآخرة أو عليهم، ومن ثم أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح، والإيمان والكفر، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة العامة واستعدادات الأفراد الخاصة، وجعله فتنة وابتلاء، يجزي عليهما الناس يوم الجزاء.

ثم جعل الآخرة حرثا والدنيا حرثا يختار المرء منهما ما يشاء، فمن كان يريد حرث الآخرة عمل فيه، وزاد له الله في حرثه، وأعانه عليه بنيته، وبارك له فيه بعمله، وكان له مع حرث الآخرة رزقه المكتوب له في هذه الأرض لا يحرم منه شيئاً، بل إن هذا الرزق الذي يعطاه في الأرض قد يكون هو بذاته حرث الآخرة بالقياس إليه، حين يرجو وجه الله في تثميره وتصريفه والاستمتاع به والإنفاق منه، ومن كان يريد حرث الدنيا أعطاه الله من عرض الدنيا رزقه المكتوب له لا يحرم منه شيئاً، ولكن لم يكن له في الآخرة نصيب، فهو لم يعمل في حرث الآخرة شيئاً ينتظر عليه ذلك النصيب، ونظرة إلى طلاب حرث الدنيا وطلاب حرث الآخرة، تكشف عن الحماقة في إرادة حرث الدنيا![18]

فرزق الدنيا يتلطف الله فيمنحه هؤلاء وهؤلاء، فلكل منهما نصيبه من حرث الدنيا وفق المقدور له في علم الله، ثم يبقى حرث الآخرة خالصا لمن أراده وعمل فيه، ومن طلاب حرث الدنيا نجد الأغنياء والفقراء، بحسب أسباب الرزق المتعلقة بالأوضاع العامة والاستعدادات الخاصة، وكذلك نجد الحال عند طلاب حرث الآخرة سواء بسواء.

ففي هذه الأرض لا اختلاف بين الفريقين في قضية الرزق، إنما يظهر الاختلاف والامتياز هناك، فمن هو الأحمق الذي يترك حرث الآخرة، وتركه لا يغير من أمره شيئاً في هذه الحياة، والأمر في النهاية مرتبط بالحق والميزان الذي نزل به الكتاب من عند

[16] قطب: سيد، في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة،المجلد الأولص١٥-١٦، ١٩٩٧م.
[17] سورة الشورى: الآية (٢٠).
[18] قطب: سيد، في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة،المجلد الأول ،ص٣١٥١، ١٩٩٧م.

الله، فالحق والعدل ظاهران في تقدير الرزق لجميع الأحياء، وفي زيادة حرث الآخرة لمن يشاء، وفي حرمان الذين يريدون حرث الدنيا من حرث الآخرة يوم الجزاء.

٤. قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (١)، وتأتي هذه الآيات تعقيبا على دعوة الإيمان والبذل، ودعوة الفداء والتضحية، تعقيبا يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها، وتعلقها بالآخرة وقيمها، والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي، وتوزن بموازينها، تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها، وهي هنا في هذا التصوير تبدوا لعبة أطفال، بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة! لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر، هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدوا فيها من جد حافل واهتمام شاغل، ثم يمضي يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة، [١٩]

(كمثل غيث أعجب الكفار نباته) والكفار هنا هم الزراع، فالكافر في اللغة هو الزارع، يكفر أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب، ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا! (ثم يهيج فتراه مصفرا) للحصاد، فهو موقوت الأجل، ينتهي عاجلا، ويبلغ أجله قريبا (ثم يكون حطاما)، وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة، ينتهي بمشهد الحطام ! فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يحسب حسابه، وينظر إليه ويستعد له(وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان) فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا، وهي لا تنتهي إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله، إنها حساب وجزاء، ودوام يستحق الاهتمام! (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع، كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع، وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة، حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض، ولا إهمال عمارتها وخلافتها التي أناطها بهذا الكائن البشري، إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض، هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم، والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة، ليحقق عقيدته، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعا.

---

[١٩] قطب: سيد، في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة،المجلد الأول ،ص٣١٥١، ١٩٩٧م.

٥. قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [٢٠]إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى، فعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها، وهم يريدون الدنيا، ويؤثرونها، وتسميتها(الدنيا)لا تجيء مصادفة، فهي الواطية الهابطة - إلى جانب أنها الدانية والعاجلة- (والآخرة خير وأبقى) خير في نوعها وأبقى في أمدها، وفي ظل هذه الحقيقة يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير، لا يقدم عليهما عاقل بصير.[٢١]

٦. وقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ۝ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [٢٢].لقد كان الحق واضحا، ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان، وتعبيد للناس كي لا يستجيبوا لداعي الحرية والكرامة والعدل والعزة، داعي لا إله إلا الله، لهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم ويصور لهم عاقبة أمرهم،إن للجهد في هذه الأرض ثمرته، سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة، فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا، ويتمتع بها كما يريد - في أجل محدود - ولكن ليس له في الآخرة إلا النار، لأنه لم يقدم للآخرة شيئا، ولم يحسب لها حسابا، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا، ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن، وهو مؤد إلى الهلاك! ونحن نشهد في هذه الأرض أفرادا وشعوبا وأمما، تعمل لهذه الدنيا وتنال جزاءها فيها، ولدنياها زينة، ولدنياها انتفاخ، فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل: لماذا؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض، ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه -ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع - فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئا، وينالوا كذلك متاع الحياة الأخرى.إن العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا، بل إنه هو هو مع الاتجاه إلى الله فيه، ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره ، بل تزيد وتبارك الجهد والثمر، وتجعل الكسب طيبا والمتاع به طيبا، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة، إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام، وهذه مردية لا في الأخرى فحسب، بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين، وهي ظاهرة في

[٢٠] . سورة الحديد: الآية (٢٠).
[٢١] قطب: سيد، في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة،المجلد الأول،ص٣٤٩١، ١٩٩٧م.
[٢٢] سورة الحديد: الآية (٢٠).

حياة الأمم وفي حياة الأفراد، وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون.[٢٣]

المطلب الثاني

الآثار الاقتصادية والاجتماعية للزهد

كما لاحظنا كان المطلب السابق عبارة عن جمع للآيات الكريمة المختارة الخاصة بالزهد، وبعدها تم جمع التفاسير الخاصة بها من ظلال القرآن للشهيد سيد قطب، وقد تم ما سبق دون أي تدخل لا بالنص ولا بتفسيره، لأن هذا - برأي الباحث - ليس من واجب الباحث الاقتصادي، وإنما دوره يظهر جلياً في المرحلة التالية، والتي ستظهر في هذا المطلب بحول الله تعالى، حيث سيقوم الباحث بدراسة الآية الكريمة وتفسيرها دراسة متأنية وبتدبر، من أجل استشراف ما بها من دروس وعبر ونتائج ومحاولة توظيفها فيما يخدم الجانب الاقتصادي وتوجيهها الوجهة الصحيحة وتسخيرها في خدمة العباد والبلاد، ومن خلال تطبيق هذا المنهج أعلاه، وبعد دراسة النصوص محل البحث والتفاسير الخاصة بها، توصل الباحث إلى أنه إذا ما تم فهم وتطبيق النصوص الداعية للزهد وفق المنهج الصحيح، فإنها سيكون لها الآثار الاقتصادية والاجتماعية التالية:

١. أن الزهد بمفهومه الحق يعني: أن تصبح الدنيا بيد الإنسان لا في قلبه، والمفهوم الاقتصادي للدنيا يتمثل بالمال والثروة، وعملية إخراجهما من القلب إلى اليد ليس بالأمر السهل، فمعنى ذلك أن يتخلص المرء من كل مظاهر البخل والشح، والحرص الزائد على المال، مما يشجعه على تشغيله وتثميره بدلاً من حبسه واكتنازه، ولنتصور معاً الأثر الاقتصادي الايجابي المتوقع.

٢. أن الزهد بمفهومه الحق يعني: أن تصبح الدنيا وما بها عبارة عن وسيلة لتحقيق الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، وهي العبادة في المقام الأول وإعمار الأرض في المقام الثاني، ولا يخفى علينا مدى بشاعة الآثار المترتبة على التعامل مع المال كغاية مطلوبة لذاتها، ولا أدل على ذلك من هذا الاضطراب الذي يعاني منه المجتمع الرأسمالي في هذه الأيام.

٣. كما أن الزهد في الدنيا من أسباب محبة الله عزّ وجل، فإنه من أسباب محبة الناس إذا ما زهد المسلم فيما عند الناس، ولنتصور الجانب الاقتصادي من الحياة الذي تسوده أواصر المحبة والوئام، وما لذلك من أثر على كل فعاليات النشاط الاقتصادي، حيث تفعل التنافسية الايجابية التكاملية بسبب هذه المحبة بدلاً من التنافسية السلبية التناحرية.

٤. لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، فإيثار الدنيا على الآخرة إما بسبب فساد في الإيمان، أو بسبب فساد في العقل، أو بهما معاً، وهل يتصور أن من به فساد إيماني

---

[٢٣] قطب: سيد، في ظلال القرآن. دار الشروق، القاهرة،المجلد الأول ،ص٣٨٩٤، ١٩٩٧م.

يعتبر عنصر جيد وسليم للنشاط الاقتصادي، فما الذي يمنعه عن الغش وعدم الأمانة والتحايل وغيرها من الصفات المذمومة إلا الإيمان، وكذلك من به فساد عقلي لا يصلح للنشاط الاقتصادي وبذلك أمرنا رب العزة بأن لا نؤتي السفهاء أموالنا والتي هي لهم بالأساس وإنما نثمرها من خلال الولي أو الوصي .

٥. ولهذا فالزهد هو أن يستوي عند الإنسان إقبال الدنيا وإدبارها فإن أقبلت أخذها بحقها وشكر الله فيها، وإن أدبرت صبر على ذلك واحتسب، وهذا الشخص الذي يمتاز بهذه الصفة الطيبة هل ستصيبه حمى الفشل إذا ما تعرض للخسارة بحيث يحرق كل من حوله في السوق ويتمنى زوال النعمة عنهم بالطبع لا فالزاهد الحقيقي إذا ما خسر في نشاطه الاقتصادي يجعل ذلك من باب التقرب به إلى الله عز وجل فيصبر ويحتسب وبذلك يؤجر، وفي المقابل إذا ما انعم الله عز وجل عليه بالربح والنجاح في نشاطه الاقتصادي يجعل ذلك من باب التقرب إلى الله عز وجل فيكثر من الإنفاق والبذل.

٦. فحال الزاهد مع الدنيا بالتوسط والاعتدال فلا يركن إليها لأنها غرورة مخادعة، ولا يتركها لأن الآخرة لا تنال إلا بإعمارها وتحقيق مبدأ الخلافة فيها، وهذا هو الشخص الاقتصادي المثالي المطلوب، الذي يجتهد في إعمار الأرض إعمالاً لمبدأ الخلافة، مما يجعل منه عنصراً نشيطاً فعالاً، يتميز بالوسطية والاعتدال ولا يجنح إلى والغلو والتطرف في كل مجالات حياته.

٧. الزهد بمفهومه الخاطئ يميت النفس ويحبط عزائمها بحيث يسيطر عليها الخمول، وهذا يؤدي إلى تعطيل الموارد البشرية والمادية ويسيء استخدامها، وهل في هذا مصلحة للاقتصاد والحياة الاقتصادية، بالطبع لا، أما الزهد الحقيقي فعلى العكس من ذلك يجعل من الشخص صاحب نفس طيبة، وذو عزيمة قوية، مفعم بالحيوية والنشاط، لأنه يعلم بأن الآخرة لا تنال إلا من خلال الاجتهاد في إعمار الدنيا وتحقيق مبدأ الاستخلاف الرباني، وقدوتنا في ذلك السلف الصالح الذين بينوا لنا من خلال سيرتهم العطرة، بأن الزهد ليس إنهزاماً ولا ضعفاً ولا سلبية في الحياة، وإنما هو قوة روحية عظيمة، وإيمان صادق، ينعكس أثره الإيجابي على كل نشاطات وفعاليات الحياة الإنسانية كافة.

٨. والزاهد يعلم بأن العمل للحياة الآخرة لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا، فهو موقن بأن عمل الآخرة هو عمل الدنيا مع الاتجاه فيه إلى الله، ولهذا أثر اقتصادي كبير، فمراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره، بل تزيد وتبارك الجهد والثمر، وتجعل الكسب طيبا والمتاع به طيبا، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة، ولكن الفارق يظهر حين تقاس الحياة الدنيا بمقاييسها هي، وتوزن بموازينها فتبدو في العين أمراً عظيماً، ولكنها حينما تقاس بمقاييس الزهد، وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها، فهي لا تستحق أن نطلبها لذاتها فنخسر من أجلها الآخرة، كما أنها ليست

بالمستحيلة بحيث لا نستطيع تحصيلها، لنصل بها ومن خلالها إلى أعلى مراتب ودرجات الآخرة.

الخاتمة

وما أحوجنا في عصر المادية والأنانية المقيتة التي نعيش، إلى مثل هذه الأفكار الحقيقية الصادقة عن الزهد والزهادة الحقة، لكي يعم المجتمع عبق الحياة الروحية وتسود الأخلاق الحميدة، وتطمئن النفوس الجشعة، وخصوصاً في المجال الاقتصادي، من خلال الاستعداد لضبط النفس ووقفها عند الحد السليم من مزاولة "الشهوات" مع التطلع المستمر إلى ترقية الحياة ورفعها إلى الأفق الذي لا يطغى فيها جانب اللذة الحسية ونزعاتها القريبة ، على الروح الإنسانية والاتجاه إلى تقوى الله، وبهذا يظهر امتياز الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبوله بواقعها، ومحاولة تهذيبها لا كبتها وقمعها، بحجة أن دوافع الفطرة هي دوافع قذرة، لا يجوز وجودها أصلا، لأنها أساس الخطيئة وما هي إلى دوافع شيطانية،

قائمة المراجع

١. ابن تيمية: تقي الدين أحمد، الزهد والورع والعبادة. الزرقاء:مكتبة المنار،١٩٨٧م.
٢. المروزي: عبد الله بن المبارك،الزهد والرقائق.دار العقيدة،القاهرة،٢٠٠٤م.
٣. عامر: توفيق، دراسات في الزهد والتصوف. تونس:الدار العربية للكتاب،١٩٨١م.
٤. قريب الله: حسن شيخ الفاتح شيخ، في الزهد والتصوف. بيروت:دار الجيل،١٩٩١م.
٥. ابن حنبل: أحمد بن محمد، كتاب الزهد. بيروت:دار النهضة العربية،١٩٨١م.
٦. الضحاك: أحمد بن محمد الشيباني، كتاب الزهد : كتاب فيه ذكر الدنيا والزهد فيها والصمت وحفظ اللسان والعزلة. بيروت:دار الكتب العلمية، ١٩٨٥م.
٧. البيهقي: أحمد بن حسين، كتاب الزهد الكبير. أبوظبي:المجمع الثقافي،٢٠٠٤م.
٩. أبن الأعرابي: أحمد بن محمد، كتاب فيه معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين. القاهرة:دار الكتب المصرية،١٩٩٨م.
١٠. الأعرابي: سعيد أحمد بن زياد، كتاب فيه معنى الزهد، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٩٨م، ص٢٤/عن القشيري: الرسالة، ج١، ص٣٦٦.
١١. الموقع الإلكتروني لجريدة الغد، بسام ناصر : اختلال مفهوم الزهد في الدنيا ألا يكرس تخلف المسلمين وضعفهم، عمان، الأردن، 13/5/2005 .
١٢. الموقع الإلكتروني لمؤسسة محمد بن صالح العثيمين: الرابط: info@binothaimeen.com
١٣. الموقع الإلكتروني لتسجيلات الشبكة الإسلامية - الرابط: Islamweb_net.htm
١٤. الموقع الإلكتروني الشبكة الإسلامية - الزهد طريق إلى المحبة الرابط: Islamweb_net .F\:htm
١٥. الموقع الإلكتروني للشبكة الإسلامية - زهد النبي صلى الله عليه وسلم. الرابط: Islamweb_net. F\:htm
١٦. الموقع الإلكتروني للشبكة الدعوية. الرابط: www.daawa-info.net